من وراء البحار

قصور السلام

كتب مستر ريتشارد جننجز فى مجلة « القرن التاسع عشر » وما بعده الانجليزية (عدد فبراير ١٩٤٦) يقول إنه فى ذلك الشهر أو فى الشهر الذى يليه على الأكثر سيكون الاحتفال بجنازة عصبة الأمم بجنيف ، ولا يحضر هذه الجنازة غير واحد من أقرباء المتوفاة وهو بريطانيا العظمى . ولقد سبق أن نشر نعى هذه العصبة ، وألقيت الخطبة على قبرها ، ألقاها السكرتير العام السابق لها الذى حذر العالم بأن العصبة لم تخفق وإنما الأمم هى التى أخفقت فى استعمالها . وهذه فكرة يجب أن ينعم النظر فيها فلاسفة السياسة ورجال الأخلاق ، وهى كذلك موضوع جدير بأن يسقط عليه الشعراء فيتخذونه رمزاً . فماذا يكون مصير قصر السلام الذى أقيم فى جنيف ، وثبت فى أرض أوربا مع مبالغة — فيما يظهر لنا الآن — فى مظاهر الكبرياء التى يستطيعها فن البناء ؟ وماذا ينتظر أن يحدث للقصر التالى الذى يقام تحت اسم نظام الأمم المتحدة فى أمريكا ؟ هل سيكون مصير هذا القصر أيضاً أن يهجر إلى مكان أكثر أمناً ؛ مكان تحت الأرض أو قصر حقيق من الثلج على مقربة من القطب الشمالى ؟ فى فترات متعاقبة يكون السلم حائراً يبحث عن بيت جديد ، ويكون فى ذلك أشبه بالمهاجر . لعل هذه الصورة من البحث الطويل عن مسكن ترتسم أمام مصور ساخر ذى خيال بعيد كخيال الأنبياء .

موطن رئيس الولايات المتحدة

نشرت المجلة « الوطنية الجغرافية » التى تصدر فى أمريكا (عدد مارس سنة ١٩٤٦) مقالا طريفاً عن أهل إقليم ميسورى ، وهو الاقليم الذى ولد فيه الرئيس ترومان . وهذا المقال مزين بصور عدة بعضها ملون وهى صور فى غاية الاتقان شأن كل مايظهر فى هذه المجلة من صور ، وقد قالت إنه يسكن هذا الاقليم ثلاثة ملايين وستمائة ألف من السكان ، ولقد أرسلوا من الجند فى الحرب الأهلية الأمريكية — بين الولايات الشمالية والجنوبية — أكثر من أى إقليم آخر إذا قيس ذلك بنسبة عدد السكان وأنشأوا تجارة واسعة فى الفراء حول نهر ميسورى . وهم قوم أشداء لايركنون إلى الدعة بل يحبون المغامرات . وهم مزيج من مهاجرى شعوب الأرض ، ففى مدينة سانت لويس مثلا تجد عدداً كبيراً من الشرقيين إلى جانب الأوربيين . ويوصف أهل ذلك الاقليم بالحذر ، وتملك الأعصاب والتكتم ؛ فقد تجد الرجل منهم حائراً على وسام رفيع ولكنه لن ينبئك بذلك ، وإنما تقف على أمره من زميله . وقد تجد الرجل فى لباس زرى فتحتقره وهو فى الحقيقة رجل ذو مكانة .

وروى الكاتب أنه كان جالساً مع مستر كنجزبرى من كبار تجار التفاح فى ذلك الاقليم ، فاذا بأحد زارعى التفاح يخرج إليهم من بين مزارعه فيتحدث معهم عن الجو ،

والمحصول والأجور وما شابه ذلك من موضوعات ، ثم يعود إلى حقله ، فبعد أن اختفى بين الأشجار ، قال كنجزبرى : « إنه لأعقل من البوم . (وهذا الطير يوصف فى أمريكا بالعقل) فقد رأى فى أحد المزادات فى الريف فى الربيع الماضى كومة من ٥٥ صورة قديمة بين أدوات بالية أخرى ، فاشتراها جميعاً بعشرة سنتات (الدولار مائة سنت) ثم أرسل هذه الصور القديمة إلى بائع للصور فى نيويورك ، فباعها وبلغ ثمن بعضها سبعة عشر دولاراً ؛ إذ أنها كانت من تصوير كاريار وإيفز » .

ملاحظات عن مصر

لقد أمضى الدكتور أدوين كالفرلى الأستاذ بجامعة هارفرد وبرنستون ورئيس تحرير مجلة العالم الاسلامى الأمريكية سنة فى القاهرة ، وأحدث حضور هذا المستشرق الكبير حركة فى الأوساط العلمية . ولقد نشر أخيراً فى تلك المجلة ملاحظات عن زيارته لمصر ، وهى ملاحظات كانت جديرة بالنقل إلى اللغة العربية بأجمعها لما حوته من آراء قيمة جديرة بانعام النظر . على أننا لانستطيع هنا إلا أن نلخص هذه الملاحظات ، ويمكن الاطلاع على المقال بأكمله فى عدد يناير ، وهو عدد طريف حافل بمقالات شيقة عن مصر والشرق .

يرى الدكتور كالفرلى أن مصر الحالية تعكس ثلاثة عصور : مصر القديمة ، ومصر القرون الوسطى ، ومصر العصر الحديث ؛ فمصر القديمة عجيبة بأهرامها ومعابدها وقبورها وبدائع متاحفها ، وهى البلد الذى غذى بحضارته الأمم الأخرى ، والمصريون الحديثون هم سدنة هذا الكنز الذى هو منبع للثروة والشرف ، كما اتسعت دائرة الاكتشافات العلمية .

ومصر القرون الوسطى جميلة براقة بهيجة الألوان ، وتراها فى المساجد والمنائر والآثار الباقية من عصر الفاطميين والأيوبيين . وفى القاهرة شوارع وأسواق لاتزال تحتفظ بجو تلك العصور الخالية .

ويحتفظ المصريون اليوم فى لغتهم وآرائهم وعاداتهم بالكثير من عادات أسلافهم الأقدمين . وقد لايستمر هذا الميراث أمام دفعة التربية الحديثة ، والحياة الصناعية الحديثة . ولكن بعض الصفات قائمة على الطبيعة الأساسية للشعب وللبلاد ؛ فليس من المحتمل كثيراً أن يستعمر المصريون بلاداً أخرى لأنهم متعلقون بأرض وطنهم تعلقاً شديداً . ومن المرجح أن يستمر المصريون على رى الأراضى ، بل الحدائق باغراقها بالماء بدلا من رشها ، فهم قد تعلموا من الطبيعة فيضان نهر النيل بدلا من تساقط المطر ، ولكنهم قد يقلعون عن ترك القطط الصغيرة طعاماً للطير أو استعمال الفلاح الأجير فى رفع ماء النهر لكى يفيض على الحقول .

وتوجد فى المصريين أيضاً بعض العادات والآراء من ميراث القرون الوسطى جاء بها بعض المهاجرين ، أو بعض الجيوش الفاتحة ، واستوطنت فى البلاد بمرور الزمن . فالمصريون الأقباط تلقوا دينهم من الخارج ، ثم مزجوه بحضارتهم وطرائقهم وصار جزءاً أساسياً منهم . والمصريون المسلمون قبلوا دين النبى العربى ، وصاروا بعقيدتهم ورغبتهم أمة عربية بين الأمم العربية ، وفى أكثر الوجوه أكبر ممثلى العالم العربى .

ولكن المصريين اليوم يعيشون أيضاً فى العالم الحديث . فان الآراء والتيارات الجارية فى بقية أنحاء العالم تهتم بها طائفة كبيرة من المصريين اهتماماً كبيراً ويتصلون بها ، فاذا كان

مما لا ريب فيه أن أكثر المصريين من المحافظين على التقاليد فى آرائهم وطرائق تفكيرهم ، فان هنالك فريقاً كبيراً لم يكتف بقبول طرق الغرب فى الملبس والمسكن ، بل هو اتخذها فى نظرته إلى الحياة الفردية والاجتماعية .

ولقد تعلم كثيرون من المصريين فى أوربا أو فى مدارس مصرية حديثة . وبين هؤلاء عدد كبير من الفتيات ، فآراؤهم تختلف مع آراء آبائهم وإخوتهم الذين تربوا تربية قديمة . والتعليم مزدهر الآن فى مصر ، والحكومة غير قادرة على مواجهة الاقبال على التعليم . ولا يسع الباحث فى المؤلفات والمطبوعات الجارية إلا أن يتعجب لمبلغ النشاط العقلى . فعدد الكتب والمجلات والصحف كبير جداً لا يحده إلا صعوبة الحصول على الورق ، وتنفد طبعات الكتب سريعاً . وهذا النشاط الفكرى فى مصر ليس جديداً بها ، ولكنه لم يكن قط كبيراً على هذا النحو .

وقد بلغت مصر الحديثة تفوقاً على العالم الاسلامى فى ميادين عدة من نواحى النشاط . فليس فى بلد إسلامى آخر مثل هذا الانتاج الكبير فى الأدب ، ومثل هؤلاء الكتاب فى الطبقة الأولى ، ومثل هؤلاء الزعماء فى مناحى الأدب . والمستقبل يبشر بمجد ثقافى أكبر عند ما تنشر كنوز الماضى الثمينة وفهارس الكتب .

وفى عالم السياسة نجد مصر كذلك فى الطليعة بين الشعوب المتكلمة بالعربية ، فهى العاملة على تحقيق تأليف جمعية الأمم العربية . والمصريون محبون للحرية والسلم . فمن المنتظر أنهم يرغبون أن تتحقق لجيرانهم مثل هذه الحرية ، وأن يبذلوا مجهوداً سلمياً للوصول إلى هذا الغرض .

وليس من الواضح لصاحب المقال أن مصر ستظل زعيمة الأمم الاسلامية فى عالم الدين ، فمصر قد قبلت الآراء الحديثة فى جوانب النشاط الانسانى ، وحصلت على حقوق فردية واجتماعية بعد أن بذلت مجهوداً كبيراً ، ويكون من العجيب ألا تتطور فى آرائها الدينية .

ولقد كان لمصر فى القرن الماضى زعيم دينى اعتبرت تعاليمه فى عصره بعيدة فى التجديد ولكن آراءه الآن محترمة وذكراه ممجدة . وقد يجد الزعماء الذين ينصحون ببعض الاصلاحات التى لها علاقة بالدين كثيراً من المعارضة فى بلد كمصر محافظ على التقاليد ، ولكنه من المنظور أن تتقدم مصر لا على الرغم من الدين بل فى حدود الدين ، حتى تتمتع بكل ما تتمتع به الأمم الحديثة .

رحلة فى سويسرا

استطاع مستر سيرل كونولى محرر مجلة هورايزن الشهرية أن يزور بلاد سويسرا فى يوليو الماضى ، وكان من أثر ذلك أن صدر عدد فبراير سنة ١٩٤٦ من هذه المجلة وكله حديث عن سويسرا ومقتبسات من آراء أدبائها وشعرائها ورجال الفن فيها . وقد وصف مستر كونولى رحلته من باريس إلى تلك البلاد فى جو شديد الحرارة كما يحدث أحياناً فى شهر يوليو ، فوصف هذه الرحلة بأنها حلم مزعج فيما مر به من ألوان المتاعب . فقد ظل المسافرون منذ الساعة التاسعة مساء حين بارحوا باريس إلى أن وصلوا فى ظهر اليوم التالى إلى الحدود السويسرية وهم بلا ماء ولا طعام ، وكان أكثرهم واقفاً فى طرقات القطار لا يجد سبيلا للجلوس ، ثم تبدت لهم فجأة ما يشبه أرض كنعان وهى تدر لبناً وعسلا ، وهم راكبو القطار على طعام من السمك واللحم والنبيذ الأبيض وأخذوا يشعرون بعد الحرمان بأنهم من السياح . ولا يقصد

بلفظة السياح هنا هؤلاء الناس المدنيون الذين يشك فى أمرهم وكانوا يرون فى القطارات العسكرية بل سياح من النوع المألوف قبل الحرب الذين يحملون أدلة السفر والصحف وعلب السجائر . وسار بهم القطار وهم يستمتعون بجمال الطبيعة حتى بلغوا بحيرة نيوشاتل التى ذكرتهم أن ماء البحيرات قد يتخذ ألواناً فى الطبيعة ، ثم أخذت الأسماء تنقلب ألمانية واختفت كروم العنب ووصل المسافرون إلى برن عاصمة الاتحاد السويسرى حيث نزل مستر كونوللى فى أحد الفنادق ، وجلس على شرفة الفندق بعد أن كاد ينسى أن للفنادق شرفات . وأخذ يتأمل فى منظر من أجل مناظر العالم حيث يطل على قمم الجبال الدائمة البياض على حين يشق الصخر فى جريه السريع نهر الآر كأنه سيف عملاق . وكان يتناول طعام فطوره على هذه الشرفة وأمامه كمية وافرة من القهوة والفاكهة وفى يديه جريدة سويسرية ، وهو ينظر إلى أجساد المستحمين فى النهر . ومن عادة أهل برن فى استحمامهم أنهم يرمون بأنفسهم فى الماء ويتركون للتيار حملهم فيه فيكونون كأعواد الثقاب . وتبدو مدينة برن لمن ذاق الحرمان خمس سنوات فى انجلترا أشبه بوهم من الأوهام بما فيها من حوانيت مزينة كأنها شجرة عيد الميلاد وما يرى فى حوانيت باعة الساعات من العجائب التى تلمع بالذهب وتوقظ الرغبة فى نفوس المتفرجين ، ثم حوانيت الملابس وبائعى السجائر حيث تجد أنواعها بالمئات ، ويرى المحروم من هذه الأشياء ما يدفعه فى آخر الأمر إلى أن يكره هذه الحوانيت ، وليس فى العالم القديم بلد أتقن صناعة الحياة مثل سويسرا حيث بلغ الاتقان غايته لذوى المال ، فالقطارات السويسرية جنات تسير على عجلات ، وهى نظيفة ساكنة سريعة ذات نوافذ محكمة ، والفنادق يعجز الوصف عن ذكر محاسنها ، ومدن بلغ تناسق الأبنية فيها غايته بين الحديث والقديم ، والاضاءات على طرق جديدة فى نهاية الطرافة .

والذى يطير من لندن إلى زوريخ مثلا يكون قد انتقل من مدينة ثلاثة أرباعها قذر غير صحى مخرب ، إلى بلدة صناعية هى أكثر بلاد أوربا تقدماً فيها خير المساكن للعمال وأصح المصانع ، حيث تجد هواء جميلا يشجع على التفكير الجديد والابداع فى الفن ، كما يثبت ذلك سكنى جديون ودادا وجويس ويونج لهذه المدينة .

ماذا دفعت سويسرا ثمناً لهذا التقدم المادى ؟ إنها دفعت بعض الشعور بالجريمة والوحدة ، وهما ثمن لمن بقى على الحياد ؛ فهى لم تلق عليها القنابل ولم تغز ولم تتخرب فى سبيل الحرية مع أنها بلد حب الحرية فيه ميراث ، وذلك يوجد شعورا بعدم الرضا . وقد دفعت كذلك ثمناً داخلياً هو أن سويسرا بلد مغرق بالكماليات مختنق بما فيه من ذهب ، ولكن ضرورات الحياة فيه نادرة مرتفعة الثمن .

واسترسل الكاتب فى وصف أهل سويسرا الذين هم من عنصر ألمانى وفرنسى وإيطالى وكيف كانوا يتطلعون إلى مونيخ أو ڤينا وباريس وميلانو ، وإذا هم الآن لا يجدون شيئاً . ووصف جنيف ومحاسنها ، ثم تكلم عن لوزان ، ثم وصف لوسيرن حيث تغص بالباحثين عن اللهو من لاعبى التنس والجولف والأمراء المنفيين . وقال إنها أشبه شىء بمتجف لذوى الثراء . وإنه يشعر بالرغبة كما شعر فى كثير من المدن السويسرية بأن يطلق عليها جمعاً من السنغاليين السود أو من البحارة الفرنسيين أو العمال أو من نساء أمريكيات سكارى أى جماعة من أولئك الذين هم عمد للسفالة الأخلاقية الذين يسيرون غير آبهين على الحشائش أو يبصقون فى النقالات التى تسير بين الجبال على أسلاك معلقة فى الهواء .